يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

(تابع)

١٤ أكتوبر ...

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكتبي بدار النيابة . وعلم المساعد بعودتي فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتي . ولكنه عاتب على إغفالي إياه في واقعة الليل . فنبهت إلى أني حقيقة نسيته كل النسيان . إن اهتمامي باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهاني ولا شك عن كل شيء آخر . ومع ذلك فهي حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن حضرة المأمور . ولم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة . آه لهؤلاء العمد ! لشد ما أرثي لحالهم ! وظهر « فراش » المحكمة الحاج خميس . فطلبت إليه كوبا من الشاي الخفيف . والتفت إلى مساعدي فأقبل على يحدثني كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأني به جوعان كلام . إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتي عنه . لقد سئم الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله . اللهم إلا دكان ذلك البدال الروسي « طناش » ، وضمت أمامه مائدتان من الخشب وكرسيان من القش . وقد أطلق عليه الأهالي اسم « الخمارة » . وحتى هذا الروسي قد ارتدى جلبابا كجلباب الفلاحين فلم يعد شيء ينم على

أنه «افرنجي» غير لون العينين والشعر . أين يتنزه ؟ وأين ينفق وقته ؟ هذا الشاب الذي جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار واللاهي والضجيج ؟ إنه الآن لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم . وغير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة يأوي إليها الفلاحون . إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماد وفضلات البهائم ، وفي تكدسها وتجمعها « كفوراً » و « عزباً » مبعثرة على بسيط المزارع ، لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الفيطان . هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع . ويزيد في كربه هذا السكون الذي يهبط على البلدة منذ الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير ونحيب السواقي والشواديف والكياسات ، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها في جوف الليل الخفراء الخصوصيون

او النظاميون أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم . إن مساعدى يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المعوج أوالطالمة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ؟ وفكر صاحبي فى الاختلاف إلى النادى . إنه لا يعلم شيئاً عن نادى هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة فى منزل عتيق يصعد إليها بسلم من خشب . وهى تضاء بمصباح غازى أى « كلوب » وهذا « الكلوب » هو وحده الشيء الجدير بالاحترام فى الحجرة . أما أهل النادى فهم بالطبع رجال الادارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الاجزاخانة . ولا يشغل هؤلاء فى ذلك المكان غير لعب الورق و « الطاولة » واغتياب الناس . فهل يليق بمثل النائب العام فى هذا المركز أن يندس فى هذه الزمرة ! لقد قلت لمساعدى أنى « شخصياً » أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذى دعانى فيه رجال الادارة إلى حفلة عشاء فى ذلك النادى مع القاضى المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار فذهبت . وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام . وقد ملأوا كأسى وكأس القاضى . ولم يفطن القاضى لنفسه فشرب وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لاموضع للكلام والضحك . وعندئذ مال علىّ المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى فى أذنى ضاحكا : « البك القاضى فقد وقاره ! » فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك . فانسللت منصرفا إلى بيتى فى هدوء دون أن يشعر بى هؤلاء المتخبطون فى كؤوسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدماً فى هذا النادى . واقتنع مساعدى بكلامى . وأردت أن أزيده بياناً ليزداد حرصاً ، ولكن الحاج خميس دخل حاملاً كوبا لم يكد يقع نظرى عليه حتى صحت :

— ما تسقينى أحسن حبر « كوبيه » وتخلص !

— صلّ على النبى ياسيدنا البك ! أنا بقى لى عشرين سنة فراش محكمة . وورد علىّ أصناف الأهالى والموظفين . تصدق بالله ! ما ينفع فى المحاكم إلا شاى مرّ طعم « الفورنيه » !

فترددت قليلا ثم لم أجد مناصاً وقلت :

— شاى المحاكم وشغل المحاكم كله مُرّ والسلام ، هات . ! . ووضع الرجل الكوب الزجاجى أمامى وانصرف . وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى بروحه الذى لا أستخف له ظلا وقال :

— عندنا من نوع التلبس أربع قضايا .

— هات !

فذهب وأرسل إلىّ العسكرى القادم « بالمحاضر » والمقبوض عليهم . وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعى أمامنا المتهمين . وجعلت من نصيبى ثلاث قضايا . واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظرة سريعة وأعطيته مساعدى وأنا أقول له : « سرقة كوز ذرة . لن نعثر لك على أسهل من مثل هذه السرقة . سل هذا المخلوق فستجده معترفا فى أمان الله ! » . وبدأ الاضطراب قليلا على المساعد : فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً . وتناول من يدى المحضر . وجعل يقرؤه كلمة كلمة .. ويعيد قراءة هذه « القسائم » التى لم تزد على الخمس . وفرغت أنا من أمر نصيبى البالغ أضعاف ما عنده وهو مازال منهمكا فى إعداد ملخصات وافية ، وملخصات للملخصات ، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل

ستاق فى صدر سارق « كوز الذة » . فكتمت ضحكى . أنا أيضاً فى مستهل حياتى القضائية كنت أفعل فعله . ولقد قسا علىّ القدر أشد مما قسا على هذا الشاب فنكبنى بقضية تزوير معقدة كانت هى أول عهدى بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابى وقتئذ وقد مثل أمامى المتهم المزور بطول باعه وذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة . فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسى ، ولم أدر ما أقول . وانتظر الرجل واقفاً فى هدوء أن أفتح فمى أو يفتح الله علىّ بسؤال ، وتصبب منى شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن منى حالاً وأربط جأشاً وأقوى امتلاكا لأمره . وخيل إلىّ أنه يسخر منى فى دخيلة نفسه . وكان كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مران طويل صادف فى حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالى . عرف مابى فأسرع يعاونى ويلقننى ما ينبغى أن أبدأ به من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون أن أظهر له حاجتى الى تدخله . وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوى الحق المغموط والفضل المجهول كثيرون ؛ وقد سمعت أحدهم يقول لى مشيراً إلى بعض من كبار رجال القضاء : « علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا قضاة ومستشارين ، والواحد منا واقف فى مطرحه لا يكبر ولا يصغر « زى جحش السبخ » ! تذكرت كل هذا وأنا أنظر الى وجه مساعدى . ورأيت أن أتمهد خطاه الأولى بنفسى ، فطلبت إليه أن ينحى جانبا هذه اللخصات ، وأن يضغط بأصبعه على الجرس . ففعل وظهر الحاجب بالباب ؛ فأمرته باحضار المتهم الأول ، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع مسن ؛ وقلت للمساعد أن يوجه إليه مايحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف ، فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر الى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى .

فنظر المساعد الىّ وقال فى لهجة الانتصار :

« اعترف المتهم بالسرقة » !

فقال الرجل فى بساطة :

— ومن قال إنى ناكر ؛ أنا صحيح من جوعى نزلت فى غيط من الغيطان سحبت لى كوز ...

ووقف القلم فى يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك . والتفت إلى يستنجدنى ، فنظرت الى الرجل سائلاً :

— سين ، يا رجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، ياحضرة البك هات لى الشغل وعيب علىّ إن كنت أتأخر . لكن الفقير منا يوم يلاقى ، وعشرة ما يلاقى غير الجوع

— أنت فى نظر القانون متهم بالسرقة

— القانون يا جناب البك على عيننا ورأسنا . لكن يعنى القانون عنده نظر ويعرف أنى لحم ودم ومطلوب لى أكل

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله

— تدفع كفالة ؟

— كنت أكلت بها

— إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالى يفرج عنك فورا

— خمسين قرشا : وحياة راسك أنا ماوقعت عينى على صنف النقدية من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله ، ما أعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من وسطه والا سدّوه

فنظرت الى مساعدى وأمليت عليه نص القرار

— « يحبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له فيش وتشبيه » . اسحبه يا عسكرى !

فقبل الرجل كفه وجهاً وظهراً حامداً ربه :

— ومالله . الحبس كويس . ناقى فيه على الأقل لقمة مضمونة . السلام عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع فى معصميه القيد . واطمأن مساعدى واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت القضية التالية . فظهر العسكرى ومعه آخر وفتحا باب مكتبى على مصراعيه ، وجذبا الى داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة وولداً قد شدوا فى حبال من الليف ، إذ لم يجدوا فى المركز لكل هذا العدد قيودا حديدية . فما تمالكت أن صحت لمنظرهم :

— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل الحبال يا عسكرى !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل :

— فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها الممنوعات . وباقى غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة اللاحظ وأورطة الهجانة !

فأدرت بصرى فى هؤلاء الآدميين . واستمدت فى تخيلى ما قرأته الساعة عن تهمتهم فى الأوراق التى أمامى وقلت :

— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسات يا فندم

نعم . إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياساً ضخمة مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وستر وسراويل ، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر فى القاهرة من المتاجر الشهيرة ، وكانت تجتاز ليلاً بكل هذا جسر الترعة المحاذية لدائر الناحية ، فسقط منها فى الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبث الكيس فى أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة ، فهرعت تلك البلدة العارية الى ذلك الكنز الذى لا يشابه كل الكنوز . وتسابقت الأيدى الى الكيس الراقد فى الطين تجذب من بطنه ما تصل اليه ، فان كان سروالا من الصوف لبس فى الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان معطفا من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه) . وإن كان حذاء لاءما وضع فى الأقدام بغير جوارب . ومضت البلدة تجرى فى الطرقات فرحة مهللة : « الكساوى فى البحر ، الكساوى فى البحر ... » ، الى أن رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...

ورأيت أن أسألهم أول الأمر جملة ، علنى أظفر منهم باعتراف ييسر علىّ مهمتى . فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقتم الملابس ؟

فأجابنى من بينهم صوت عميق رزين :

— أبدا والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر رمى علينا الكيس ، وكل واحد منّا طال نصيبه

فقلت للرجل من فورى :

— نصيبه ؟ ! هو الكيس ملك البحر والا له أصحاب خواجات ؟

فأجاب الرجل فى صوته العميق الهادىء :

— راح من بالنا أن له أصحاب ياحضرة البك

ربنا يعلى مراتبك ؟ إرأف بحال الفلاحين المساكين!

— المسألة مسألة قانون . والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً مملوكا للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل معاملة السارق . فهمتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك . لكن ... بقى ... الكساوى كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان ...

— أنت يا رجل فاكر الدنيا فوضى ، وإلا فيه قانون وحكومة ! ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقى هى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ؟ : لا كسترنا ولا تركتنا نتكسى !

— أنا مضطر أن أحبسكم

— يا جناب البك . أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوى منا ، والعيال الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا . يبقى الحبس له لزوم ؟ !

— أفرج عنكم بضمان مالى

— مالى ؟ ! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !

— تفضلوا من غير مطرود ! دماغى وجعنى والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا مقيد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة فى أيديكم . المسألة عندى قبل كل شىء مسألة قانون . « يحبس المتهمون كلهم احتياطيا أربعة أيام ويجدد لهم ويعمل لهم فيش وتشبيه » اسحبهم يا عسكرى !

فخرجوا جميعاً فى صف طويل وفى ذيلهم رجل يقول هامساً :

— يحبسونا لأن ربنا كسانا !

وهدأ المكان . ولكن رائحة كريهة انتشرت فى الحجرة . فناديت الحاجب وأمرته بفتح النوافذ . ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة . وحانت منى التفاتة إلى مساعدى فوجدته مطرقاً مفكراً . فداخلنى حب استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن . أتراه قد تأثر لشىء . أترى دقة الحس ورقة الشعور التى جاء بهما كما جئنا كلنا فى مبدأ عملنا الحكومى بالريف ما زالت حية أم أنها فى طريق الموت ... ولكن طرقة عصا شديدة ضربت الباب عرفت فيها ضربة المأمور . ودخل صاحبنا يلهث ويصيح :

— البنت ريم ...

— مالها ؟ !

قالها رغماً عنى فى لهفة . فاستراح المأمور على كرسى وأنا أنتظر الكلام من فمه يصير نافد . غير أنه نظر إلى الحاجب بالباب :

— إسقنى وحياة عينيك !

وأخرج منديله الحرير الصناعى من كمه ومسح وجهه ورأسه وأنا على أحر من الجمر . وأخيراً التفت إلى وقال :

— اختفت !

فنظرت إليه مليا :

— تتكلم جد !

— هربت مع الشيخ كاب !

— الشيخ عصفور ؟ !

— نهاره اسود !

— والعمل ؟

— أمرت فرقة الهجانة أن تقوم فى الحال فتفتش الأثر فى جميع الطرق الزراعية ...

وجلسنا فى صمت . وقد شرد فكر كل منا...

توفيق الحكيم